آفات التفكير التي نقدها الشيخ عبد الرحمن المعلمي

د . سليمان بن ناصر العبودي

الأستاذ المساعد بكلية الدعوة وأصول الدين

جامعة أم القرى – مكة المكرمة

(Umm Al-Qura University)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين إله الأولين والآخرين، وخالق الخلق أجمعين، والصلاة والسلام على من بعثه ربه رحمة للعالمين، وحجة على العباد إلى يوم الدين، وعلى آله وصحبه الذين ساروا على نهجه في إتباع القرآن الكريم وهدي سيد المرسلين، فسارت راياتهم في الآفاق مشرقين ومغربين، أمَّا بعد:

فإن غاية الإنسان في هذه الدنيا تحقيقُ العبودية لله رب العالمين، فهي التي عليها مناط التكليف، وعليها تدور الرسالات السماوية كلها، وإن إطلاق عنان التفكير في آيات الله في الكون والأنفس والآفاق من أجلِّ العبادات والوظائف التي حفزنا الخالق عليها في محكم كتابه لأنها إذا امتُثِلت وأخذت بمنهجية صحيحة فإنها تُسلم الناس إلى الإيمان والعمل الصالح.

ومرتبة التفكير الصحيح ومنهجيته هي من أجَلِّ الوظائف وأنفعها وأشرفها لتعلقها بدين الله ﷻ، إذ إنّ الشرع حفز أتباعه على توظيف ملكة التفكير في محكمات نصوص القرآن والسنة، بل لم يكتف الشرع بذلك حتى جعل العقلَ مناط التكليف، وكل ما كان متصلاً بهذا الدين العظيم كان له من القدر والمنزلة بقدر تعلقه به.

وقد تحدث عدد من الباحثين والعلماء في الشرق والغرب عن تعريف التفكير وذكروا أنواعه ومجالاته وضوابطه وآفاقه، وملخص ما يذكر في مفهوم التفكير عند الباحثين أن التفكير هو التحرك الذهني الذي يصبو إلى حل مشكلة ما. فهو سلسلة من النشاطات العقلية غير المرئية يفعلها الدماغ استجابة لمثير خارجي. وهذه النشاطات العقلية ربما كانت صحيحة سالمةَ من الآفات، وربما وقعت في آفات التفكير كالتناقض والهوى والتعصب والتقليد وعدم الاطراد.

ولما كان الأمر كذلك؛ وُجِدَ لدى علماء الإسلامِ المتبحرين في علوم الشرع عناية فائقة بمنهجية التفكير الصحيح وإبرازها وتجليتها والإبانة عنها وعن طرائقها ومجالاتها وضوابطها وآفاقها وصولا إلى آفاتها ومشكلاتها من خلال مؤلفاتهم.

وقد كان من هؤلاء العلماء الذين لاحظنا نتاجهم العلمي عناية فائقة بمنهجية التفكير العلامة عبدالرحمن بن يحيى المعلِّمي اليماني وهو من العلماء الأفذاذ الذين جابوا في البلاد ثم أقام آخر عمره بمكة المكرمة، وله جهود علمية كبيرة، وقد طُبعت مؤلفاته كاملةً في خمسة وعشرين مجلدا، وهي في علوم شتى نحو: علم العقيدة وعلم التفسير، وعلم الحديث، وعلم الفقه، ومتفرقات أخرى، ومن بين هذه الكتب ما ألفه بقصد النقض والرد والمناقشة العلمية نحو كتابه "الأنوار الكاشفة لما في كتاب "أضواء على السنة" من الزلل والتضليل والمجازفة"، وهو نقض علمي متين لكتاب محمود أبو رية في الهجوم على السنة النبوية، ومما ألفه بقصد النقض والرد والبيان والمناقشة العلمية كتاب التنكيل وكتاب طليعة التنكيل وكتاب رسالة في التعقيب على تفسير سورة الفيل، وظهرت بوضوح في هذه الكتب عناية الشيخ المعلمي التامة بمنهجية التفكير الصحيحة والإبانة عنها والتركيز عليها في أثناء مناقشاته العلمية.

وهو عبد الرحمن بن يحيى بن علي بن مُحَمَّد بن أبي بكر بن مُحَمَّد بن حسن المعلمي العُتْمي اليماني، والمعَلِّمِي: بفتح العين وتشديد اللام المكسورة وكسر الميم، آخره ياء، نِسبةً إلى أحد أجداده، وقد وقع في نسب آل المعلمي خلاف هل يعود نسبهم إلى أبي بكر الصديق وهو من قبيلة تيم مرّة أم إلى قبيلة بجيلة؟

أما وقت ولادته ومكانها فقد قال الشيخ في ترجمته: "وُلدت في أواخر سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة وألف، بقرية المحاقرة من عُزلةِ الطُّفَن من مخلاف رازح من ناحية عُتْمة من قضاء آنِس التابع لولاية صنعاء في اليمن"[1]، ونشأ الشيخ نشأة صالحة في بيت صلاح وعلم.

ثم بدأت المرحلة الثانية من طلبه للعلم من حين قدوم والده إلى الحجرية وتوجيهه لدراسة النحو، وهذا واضح من كلام الشيخ رحمه الله، قال: "ثم جاء والدي رحمه الله

(1) المدخل إلى آثار الشيخ العلامة عبدالرحمن المعلمي "1: 44".

لزيارتنا ومكث هناك مدَّة، سألني عمّا أقرأ في المكتب فأخبرته، ثم قال لي: فالنحو؟ فأخبرته أنه لا يُدرَّس في المكتب، فقال: ادرسه على أخيك. ثم كلَّم أخي أن يقرِّر لي درسًا في النحو، فكان يُقرئني في "الآجرُّومية" مع "شرح الكفراوي"، استمرَّ ذلك نحو أسبوعين ثم سافرتُ مع والدي.. وحصلَتْ لي بحمد الله تعالى مَلَكَة لا بأس بها، في حال أن زميلي لم يحصل على كبير شيء"[1].

وتُعدُّ هذه المرحلة من أهم مراحل نشأة الشيخ وتكوينه العلمي، وقد بدت في أمرين:

ثم انتقل الشيخ بعد هذه المرحلة التأسيسية إلى مرحلة جديدة من العلم، وهي دراسة علم الفقه والفرائض، وقد وفّق حين درس على الشيخ أحمد بن محمد بن سليمان المعلمي، وقد وصفه الشيخ بالتبحّر في العلم.

أما جانب التأليف والتصنيف عند الشيخ المعلّمي فهو الجانب الأبرز في شخصيته والأبقى بعد موته، وهو الذي عُرِفَ به الشيخ بعد وفاته أكثر من معرفته به في حياته، وإن "تصنيفَ العالم ولدُه الُمخلَّد"[2].

ومن المعلوم أن مؤلفات العَالِم مِن أعظم ما يدلّ على علمه وتحقيقه وتبحّره ومنهجه في التفكير، وقد ضرب العلامة المعلمي بنصيب وافر في هذا الباب، فهو يعدّ من المكثرين من التأليف، إذ تجاوز عدد مؤلفاته مئة وعشرين كتابًا ورسالة، متفاوتة الحجم ما بين رسالة لطيفة وكتاب في مئات الصفحات.

ولم يكن الشيخ متكثرا في التأليف في حقول علمية مطروقة، وإنما كانت عامة تآليفه استجابة علمية مباشرة لحاجة قائمة، لذا عظُم الانتفاع بها بعد توفيق الله، ومن الملحوظ في أسلوبه في كتبه كثرةُ ضربه للأمثال، وعنايته البالغة بتقريب المعاني بصياغة

(1) المصدر نفسه "1: 47".

(2) صيد الخاطر لابن الجوزي "1: 34"، عناية حسن المساحي سويدان، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى "1425هـ".

الأمثال المقرِّبة للمراد، وهذا الأسلوب البياني بالغ التأثير على القارئ، وفي تقريب الحق له بأدنى سبيل ممكن، وهو من أعظم ما يعين على تفهيم المراد لذوي الأفهام الضعيفة، والشيخ المعلمي يستعمل هذا الأسلوب الكتابي استعمالا واعيا بثمرته، مدركا لنتيجته، فيقول في أحد المواضع بعد أن ضرب بعض الأمثلة: "المقصود من هذه الأمثلة تقريب المعنى الذي ذكرناه"(1)، ويقول: "والمقصود من المثال التَّفهيم"(2)، وامتاز الشيخ بالصبر على البحث والجَلَد على التفتيش والتنقيب والتتبّع والمقارنة، في وقت لم تكن الفهارس قد ظهرت إلا في أضيق الحدود، فقد صرّح الشيخ أنه ربما قرأ المجلد الكامل لاستخراج عبارة أو كلمة، وقد يبقى في تحقيق لفظة أو عبارة أيامًا، ويُكاتب العلماءَ والباحثين في أقطار الأرض من أجل ضبط لفظة أو الوقوف على مصدر قصة أو نحو ذلك.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى إبراز ضوابط التفكير لدى الشيخ عبد الرحمن المعلمي، وبيان أهميتها في تحصيل النتائج الفكرية الصحيحة، وكشف حضورها في نتاجه العلمي، وذلك بإبراز نماذج من مصنفاته تؤكد التزامه وتطبيقه لتنظيراته في هذا الباب.

أهمية البحث:

هناك أهمية بالغة كبيرة لدراسة مناهج التفكير وضوابطه لدى العلماء والمفكرين، وتظهر هذه الأهمية من خلال النظر في الأسباب التالية:

(1) حقيقة التأويل ، ضمن مجموع رسائل العقيدة، عبدالرحمن المعلمي، تحقيق: عدنان صفاخان البخاري، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى "1434هـ"،ج6: ص 42".

(2) المصدر نفسه "6: 42".

– المعرفة الإنسانية إنما ترتقي وتتقدم لا بمعرفة ركام من المعلومات غير المترابطة، ولا بالإحاطة بالمعارف التفصيلية الواهيةِ الصلة ببعضها، بل تتقدم المعارف الإنسانية بالوقوف على الأنظمة الكلية للمعارف، وتقفز بالتأمل في طرائق التفكير وضوابطه.

– الاستغراق في معرفة آحاد المسائل المنفصلة عن منهج التفكير يورث ضياعاً للحقيقة الكامنة خلف جميع التفاصيل، أما تتبع مناهج التفكير فهي تحفظ الحقيقة المتوارية بين ركام الحقائق، وتساهم في استحضار المعلومات العامة الجزئية.

– الإحاطة بمناهج التفكير تمنح الدارس القدرة على الاختبار والمحاكمة والنقد الجذري، وذلك بمقارنة المخرجات بمقدماتها ورد الفروع إلى أصولها ثم محاكمتها إليها.

– تسهيل طريق الائتساء وفتح باب الاقتداء للباحثين والدارسين وطلاب المعرفة، وذلك بتمهيد الدرب لهم من خلال تقريب مناهج العلماء الشاملة في التفكير وتوطئة طرائقهم العامة في النظر.

خطة البحث:

وقد تناولت جوانب الموضوع في المباحث التالية:

المقدمة.

التمهيد وفيه المؤثرات على منهجية التفكير لدى المعلمي.

– المبحث الأول: الجهل والتقليد

– المطلب الأول: الجهل

– المطلب الثاني: التقليد.

– المبحث الثاني: التعصب والهوى

– المطلب الأول: التعصب.

– المطلب الثاني: الهوى.

ومن الله سبحانه وحده أستمد العون والرشاد.

تمهيد:

لا شك أن كلَّ عالمٍ من العلماء يمر في حياته بعدد من المؤثرات التي يكون لها أبلغ الأثر في صوغ طريقة تفكيره وصبغتها بطابع ما، وهناك أمور كثيرة أثَّرت في حياة الشيخ المعلمي الفكرية، وقد اجتهدت في تلمس أبرز هذه المؤثرات واقتفاء آثارها، واستخلصتها في النقاط التالية:

أولا: الأثر اللغوي:

كان الشيخ شديد العناية بعامة علوم اللغة، فأما النحو فقد ظهرت عنايته به تمام الظهور من خلال دراسته مبكراً على أخيه وعلى شيخه، ومِنْ ثمَّ عكوفه سنةً كاملة على كتاب مغني اللبيب، وهو كتاب يعتبر فوق طاقة المتوسطين في هذا الفن، ومن خلال تدريس النحو لطلابه كما سبق، وفي ما تركه الشيخ من مؤلفات فوائد ومسائل كثيرة متصلة بعلوم اللغة، و"قصائد برمتها منها المعلقات السبع ولامية الشنفرى، وقصيدة لأحيحة بن الجُلاح، ومرثية لأخت المنذر بن عبد شمس وغيرها كثير، قيّدها بخطه الدقيق المتقن"[1]، ولاشك أن للغة والتبحر فيها أبلغ الأثر على العقل الإنساني في التحكم بمنهجيته في التفكير، فقد روى ابن أبي حاتم في كتابه آداب الشافعي ومناقبه بسنده عن الشافعي قال: "أصحاب العربية جن الإنس، يبصرون ما لا يبصر غيرهم"[2].

وكأنَّ الشافعيَّ باتساعه اللغوي المعروف يروي في هذا النص تجربتَه الشخصية التي ورِثها عن علم اللغة، ورأى أن تبحره اللغوي نمى عنده ملكة النظر والاستنباط، ورفع مستوى الأداء العقلي في التفكير إلى الغاية، فجاءت شهادته لأهل اللغة ومقدرتهم على إبصار ما لا يبصره سواهم من هذه الجهة. وقد توارد هذا المعنى لدى عدد من

(1) المدخل إلى آثار الشيخ المعلمي "1 :54".

(2) آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم، تحقيق عبدالغني عبدالخالق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى "1424هـ"

العلماء السابقين، فيقول ابن المقفع[1]: "بالأدبِ تنمى العقولُ وتزكو"[2]، ويقول الفرّاء[3]: "قلّ رجل أنعم النظر في العربية وأراد علما غيره إلّا سهل عليه".

هذا وقد أشار إلى معنى علاقة اللغة بالفكر والذي ذكرته عن العلماء السابقين بعضُ الباحثين المعاصرين فذكر أننا "لا نستطيع أن ننتج من الأفكار إلا ما تسمح به اللغة التي نستخدمها، وإن درجة خصوبة الفكر تتحدد بمستوى نموّ اللغة، ومن هنا فإن الشخص الذكي جدا لو فكّر في مسألة من المسائل وكان أميّا، أو كانت مهارته اللغوية ضعيفة، فإنه لا يستطيع الاهتداء إلى حل معقد لما يفكر فيه بسبب قصور معرفته باللغة"[4].

فالمقصود أن لليد الطولى للشيخ المعلِّمي في اللغة وعلومها غايةَ الأثر في حياته الفكرية، وليست اللغةُ مقصورةً على معرفة القواعد اللغوية في النحو والصرف والبلاغة والعروض والاشتقاق ونحو ذلك، وليست هي في مجرد الاستكثار من حفظ الألفاظ والمفردات، وإنما المعرفة اللغوية هي طول الممارسة لأساليب العرب بعد معرفة عامة القواعد، وهكذا كان الشيخ المعلمي واعياً بهذه المسألة الدقيقة، فاطلع على قصائد

(1) هو عبد الله بن المقفع أحد البلغاء والفصحاء، ورأس الكتاب، وأولي الإنشاء، من نظراء عبد الحميد الكاتب، وكان من مجوس فارس، فأسلم على يد الأمير عيسى عم السفاح، وكتب له، قال الأصمعي: صنف ابن المقفع "الدرة اليتيمة" التي ما صنف مثلها. ولد "106هـ" وتوفي "142هـ" انظر سير أعلام النبلاء "11: 260".

2() الأدب الصغير لابن المقفع ، عناية وائل بن حافظ بن خلف، دار ابن القيم، الإسكندرية ص16.

3() هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور أبو زكريا الفراء مولى بني أسد من أهل الكوفة، نزل بغداد، وأملى بها كتبه في معاني القرآن وعلومه، وكان أحفظ الناس لنوادر الكسائي، ولد سنة "144هـ"، وتوفي "207هـ". انظر تاريخ بغداد "16: 224".

(4) تكوين المفكر لعبد الكريم بكار "59"، عبدالكريم بكار، دار السلام، الإسكندرية، الطبعة الأولى "1431هـ".

العرب الجياد واعتنى بها عناية تامة، ونَظَّر في كتبه هذا المعنى وأصَّله تأصيلا[1]، وهذا المعنى المتعلق بطول الممارسة والمعاناة يغفُل عنه كثير ممن يقصرون علم اللغة على استيعاب القواعد المجرّدة، أو في الاستكثار من حفظ المفردات.

ثانيا: أثر الرحلة:

تعددت رحلات الشيخ وتنقلاته من بلد إلى بلد، فللشيخ ثلاث رحلات رئيسة، الأولى رحلته إلى الإدريسي "1337هـ – 1341هـ"، والثانية إلى الهند "1345هـ – 1371هـ" وهي أطول رحلاته فقد مكث في الهند خمسة وعشرين عاماً، والثالثة رحلته إلى مكة المكرمة "1371هـ – 1386هـ" واستقراره بها إلى أن توفي، وقد تخلل ذلك انتقاله إلى عدن وإندونيسيا، ولا شك أن للرحلات والانتقال من بلد إلى بلد أثرا عظيما على تفكير الإنسان وعلى تفتيق عقله وتوسيع مداركه، بالإضافة إلى ما يحصِّله من علوم ومعارف كلِّ بلد يزروه، فعلى سبيل المثال فبِـ"الرحلة الهندية انتقل الشيخ إلى عالم جديد عليه من حيث الثقافة والعادات، وانفتح على علوم جديدة لم يكن لها من الذيوع والانتشار كما في الهند، كعلم الحديث والرجال، وبانتقاله إلى دائرة المعارف العثمانية للعمل في تحقيق أُمَّهات كتب الحديث والرجال واللغة والأدب وغيرها يكون الشيخ قد انتقل إلى عمل جديد لم يمارسه من قبل ولا كان معروفاً في البيئة التي عاش فيها في اليمن ولا عند الإدريسي، فهي تجربة جديدة بحق تمكَّن الشيخ بفضل الله ثم بفضل مواهبه المتعددة وعلومه المتنوّعة وذكائه المفرط من إتقان هذه الصنعة في أقرب وقت، بل صار هو العَلَم المشار إليه في الدائرة في تصحيح الكتب وحلّ مشكلات التحقيق خاصة فيما يتعلق بكتب الحديث والرجال"[2].

1() ينظر: رفع الاشتباه للمعلمي ، تحقيق د. عثمان بن معلم شيخ محمود، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى "1434هـ" ج2:ص 315.

(2) المدخل إلى آثار الشيخ المعلمي "1: 75".

ثالثا: أثر علم الحديث:

لا شك أن كلّ علم يترك أثراً بالغاً على متعلّمه وفي طريقة تفكيره ومجال نَظَرِه، وقد أشار إلى معنى أثر العلوم على حامليها عدد من العلماء، فعلى سبيل المثال قال الإمام الشافعي: "من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تعلم الفقه نبل مقداره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن تعلم العربية رقَّ طبعه"[1]، وعلوم السنة على وجه الخصوص علوم عميقة الغور، بالغة الدقة، محكمة المنهج، غزيرة التفاصيل، تفتقر إلى حس علمي عالٍ، وتحتاج إلى مواهب لدنّية خاصة، وتساهم بطبيعتها الذاتية التفصيلية في شحذ إمكانيات دارسيها مساهمة كبيرة، لاسيما ما يتعلق منها برجال الإسناد جرحاً وتعديلاً، وقرائن الاتصال والانقطاع، واستخلاص القواعد الفاعلة في هذه الحقول الدقيقة، وذلك من خلال استقراء تصرفات الأئمة النقاد على اختلاف مراتبهم، وقد كان الشيخ يشكو بمرارة ساخنة في عدة مواضع مختلفة في كتبه من غربة فنون السنة النبوية في هذا العصر[2].

وأخيراً فإن الشيخ المعلّمي انتفع من تضلعه في دراسة علوم السنة النبوية، وإشتغاله بتحقيق أمهات الكتب المتعلقة بها في بناء منهجه الفكري، فكانت كتاباته تدل على شفوف نظر وسعة أفق ودقته البالغة في التناول للمسائل العلمية.

المبحث الأول:

الجهل والتقليد

المطلب الأول: الجهل.

يعتبر الجهل من أعظم آفات التفكير ، وهو قصور العقل عن إدراك معطيات المسائل التي يبحثها ويعالجها، وهذا القصور المعرفي يضع العقل أمام مأزق حقيقي يعسر عليه

(1) أدب الدنيا والدين للماوردي ، دار المنهاج، جدة، الطبعة الأولى "1434هـ"، ص77.

(2) ينظر: الأنوار الكاشفة للمعلمي "12: 119".

تجاوزه وصولا إلى شاطئ الصواب، إذْ إن الجاهل بمعطيات المسائل التي يناقشها سيخطئ حتماً لا لقصور إمكانياته العقلية بالضرورة وإنما لنقص في المعلومات والمعطيات التي يفكر بها، فالجهل ظُلمة شديدة السواد في طريق التفكير المنهجي.

والجهل لا يعاب كلُّه، وإنما المعيب عدم المبادرة إلى دفعه مع القدرة على ذلك، والجهل المركب الذي يدفع المرء إلى الخوض في مسائل لم يتأهل لها، ويحمله إلى أن يقفو ما ليس له به علم، قال الشيخ المعلّمي: ((إن الجهل بما ليس في قدرة الإنسان العلم به لا يعد نقصاً، وإنما الجاهل من يجهل ذلك ويجهل أنه جاهل، ويخب ويضع فيما ليس فيه مطمع، ويؤول به الأمر إلى ما سمعت وتسمع))[1].

ومن أسباب دوام الجهل الأنفة من الاعتراف به والحياء من السؤال، قال المعلمي: ((ومنهم من لا يكون له رغبة في الكمال، ولكنه يأنف من الاعتراف بالجهل، فحاول النظر فعرضت له شبهة، فقنعَ بها، ولم يُتعِب نفسه في طلب الحق))[2].

تناول العلامة المعلمي لآفة الجهل:

تناول الشيخ المعلمي هذه الآفة من آفات التفكير في مواضع كثيرة من كتبه، وقررها في أثناء غالب مناقشاته، وفيما يلي ذكر لجملة من إشارات الشيخ لآفة الجهل:

1. الجهل هو من أعظم أسباب التفرق والتشرذم الواجب تركها، قال الشيخ: ((أسباب التفرق والاختلاف الواجب تركها باتفاقهم هي: الجهل والهوى والتعصب..))[3].
2. الجهلَ وقلة المعرفة تحمل المرء كثيراً على الاعتماد على ظنونه، فالجهال أكثر اعتمادا على ظنونهم وأوهامهم من العلماء، فالجاهل رغم جهله يقطع في

(1) حقيقة التأويل للمعلمي (6: 43).

(2)مجموع رسائل أصول الفقه للمعلمي (19: 12).

(3) الأنوار الكاشفة للمعلمي (12: 31).

موارد الظن، والعالم يمنح كل مقام ما يستحقه، مع أن المفترض أن الجهال وقليلي المعرفة هم من أبعد الناس عن الاعتماد على ظنونهم.. ولكنها آفة الجهل! يقول الشيخ في سياق ذكره لأسباب الغلط: (أعظم سبب في ذلك هو الاعتماد على الظن، وإذا كان الاعتماد على الظن كثيرًا ما يوقع أهل المعرفة في الغلط، فما بالك بمن ليس منهم! على أننا وجدنا بالخبرة والممارسة أنَّ قليل العلم أكثر اعتمادًا على ظنِّه من العالم رغمًا عمَّا يقتضيه المعقول من أن الغالب صوابُ ظنِّ العالم وخطأ ظنَّ من ليس بعالم")[1].

ويقول المعلمي في توكيد هذه الفكرة: (عرفنا من محاولي النقد أنهم كثيرًا ما يدَّعون القطع حيث لا قطع، ويدَّعون قطعًا يُكذِّبه القرآن، ويقيمون الاستبعاد مقام القطع مع أن الاستبعاد كثيرًا ما ينشأ عن جهل بالدين، وجهل بطبيعته، وجهل بما كان عليه الحال في العهد النبوي. وكثيرًا ما يسيئون فهم النصوص)[2].

3. يجعل بعض الشبهات الواهية في غاية الإشكال والإعضال، فكثير من الشبهات على الحقّ إنما تسللت إلى النفوس من ثغرة الجهل، قال المعلّمي شارحا هذا المعنى: ((بعض الشبه التي لا تستحق أن تسمى شبهًا، فضلاً أن تسمى أدلة، لكنها على كل حال ربما تجذب أذهان بعض الجُهال، وسأذكر منها ما يسوغ أن يسمى شبهة؛ لمشابهته الشبهة، لا لمشابهته الدليل..))[3].
4. الجهل يجعل كثيراً من الناس يخطئ في تقدير مراتب أهل العلم، فربما رفع وضيعهم وحطّ رفيعهم جهلاً منه بأقدارهم، يقول الشيخ المعلمي: ((كثيرًا ما يحتج أهل زماننا وما قرب منه بآيات من كتاب الله تعالى ويفسرونها برأيهم بما

(1) مجموع رسائل في التصحيح وتحقيق النصوص للمعلمي (23: 53).
(2) الأنوار الكاشفة للمعلمي (12: 361).
(3) عمارة القبور في الإسلام للمعلمي (5: 59).

لم ينقل عن السلف ولا تساعده اللغة العربية ولا البلاغة القرآنية. وقد عظم البلاء بذلك، حتى إنك لتجد العجميَّ الذي لا يعرف من العربية إلا بعض المفردات، ولا يستطيع أن يكتب سطرين أو ثلاثة بدون لحن، وهو يفسر القرآن برأيه.. ومن البلاء العظيم أن هؤلاء الجهال هم في نظر العامة هم الرؤساء في الدين)[1].

5. من أعظم آفات الجهل الاحتجاج بغير حجة والاتكاء على غير مُعتمَد، فحين احتج بعضهم بالنعم الدنيوية على رضوان الله عنه قال الشيخ المعلمي: (فأما احتجاجه بالنعم الدنيوية على رضى الله تعالى فشنشنة لأهل الجهل معروفة، قال تعالى في شأن قريش: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ﴾ [الزخرف: 31]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ ﴾ [الفرقان: 7 – 8])[2].

6. ضلَّت بعض الفرق عن الهداية لا لقلة تجردهم في طلب الحق، ولا لضعف عبادتهم، وإنما كان ضلالهم بسبب جهلهم وقصور معطياتهم المعرفية، قال الشيخ: (الخوارج عرب فصحاء، بِلُغتهم نزل القرآن، وإنما أُتُوا من جهلهم بالهدي النبوي، واستغنائهم عن الاهتداء بالعارفين به من الصحابة. فما

(1) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 296).

(2) رفع الاشتباه للمعلمي (3: 703).

بالك بزماننا هذا وأنت تجد فيه أفرادًا من الأعاجم لا يستطيع أحدهم تركيب جملة صحيحة بالعربية، وليس عنده من معرفة بالسنة وتفاسير السلف قليل ولا كثير، ثم تجده يخوض في آيات الله عَزَّ وَجَلَّ خوض المدِلِّ بنفسه، فينظر في الآية، ثم يتتبع معاني ما فيها من الكلمات في كتب اللغة، ثم يلفق من ذلك معنى كما يوافق هواه)[1].

7. الجهل من أسباب القياس الفاسد ومن بواعث الخطأ في ضرب الأمثال. قال الشيخ في أثناء مناقشته من جَوَّزَ التوسل البدعي: (قال المجيزون: فإن فينا من يقول: إننا نرى الملك من ملوك الدنيا لا بد في قضاء الحوائج لديه من التوسل بوزرائه وجلسائه والوجهاء لديه، وقد يكون صاحب الحاجة من المجرمين الذين غضب عليهم الملك، فهو يستحي أن يسأل الملك بنفسه، ويعلم أنه لو سأله بنفسه لم ينل منه حاجته بخلاف ما إذا استشفع بأحد الوجهاء والمقربين. وقد أمر الله تعالى عباده بطلب الاستغفار من رسوله وسؤال الدعاء من جميع المسلمين ولا سيما من أهل الخير والصلاح. وأحاديث الشفاعة يوم القيامة متواترة. قال المانعون: الله أعلى وأجل، أما ضرب المثل بالملوك فهو من الجهل بالله جل ذكره، وذلك أن ملوك الأرض لهم أسباب تدعوهم إلى الانقباض عن العامة – تنزه الله سبحانه وتعالى عنها – كالخوف، فالملك يرى أنه لو برز للناس دائماً تمكن أعداؤه من اغتياله. والكبر، فهو يرى أنه لو برز للناس دائماً لسقط من أعينهم واجترءوا عليه.. فلهذه الأسباب ونحوها احتاجوا إلى جعل وزراء وحجاب يكونون وسائط بينهم وبين الناس)[2].

(1) مجموع رسائل أصول الفقه للمعلمي (19: 64).
(2) تحقيق الكلام للمعلمي (4: 407- 408).

8. غالباً ما يقترن الجهل بالتعصب، فكلما ازدادت معرفة الإنسان أدرك مراتب المسائل العلمية، واتسع أفقه، وكثر إعذاره، وعرف ما يستحق للإنكار مما لا يستحقه، أما الجاهل فإنه مع قلة علمه ضيِّقُ العطن، تضايقه الحجج العلمية، فيحتاج إلى أدب بالغ في مخاطبته ولين تام في توجيهه وتعليمه، وكان الشيخ المعلّمي بصيراً بهذه الآفة، عارفاً بأثر الجهل على أصحابه، فحين ألف بعض العلماء رسائل في الرد على بعض المبتدعة، وكانت تلك الرسائل مفعمة بروح الغضب والحمية للشريعة، فألَّفَ الشيخ رسالةً في الرد على أولئك الضلَّال، وذكر في أولها الإشارة إلى طبيعة نفسية الجاهل وضيق عطنه، وأنه يحتاج إلى الترفق والتلطف، قال الشيخ عن رسائل العلماء قبله: (مع أني تصفحت بعض تلك الرسائل، فرأيتها منسوجة بالحدة والغضب، وذلك وإن كان محموداً في الشرع لكن الأولى في خطاب الجهال الرفق واللين، والسعي في إيضاح الحقائق باللطف والحكمة، لأن الجهل داء عياء، لا يتيسر له دواء إلا إذا وجد طبيب حاذق، وليس القصد من التأليف في هذه القضية مجرد إقامة الحجة والخروج من عهدة السكوت، بل القصد مع ذلك إنقاذ هؤلاء المساكين من تخبطات الشياطين)[1].

المطلب الثاني: التقليد.

التقليد: هو ركون العقل إلى عقل غيره لضعف أو حاجة، وهو مصطلح دارج في الفقه والأصول، فيعرفونه بتعريفات مختلفة، منها أنه (قبول قول الغير بلا دليل فعلى هذا قبول قول العامي مثله، وقبول قول المجتهد مثله يكون تقليدا)[2]، وهذا المصطلح

(1) يسر العقيدة الإسلامية للمعلمي (6: 183).

(2) الكليات للكفوي (1: 305)، وينظر المستصفى للغزالي (2: 462).

تعتوره مباحث أصولية وأقاويل سلفية وكلامية تتعلق بأحكام التقليد ومسائل إيجاب النظر سواء في الفروع أو الأصول.

والذي يعنينا في هذا المطلب الكلام عن التقليد باعتباره آفة من آفات التفكير، وقد ذكر الله تعالى آفة التقليد (بيان ذم التقليد قوله تعالى حكاية عن قوم: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: 23]، ذكر ذلك في معرض الذم لهم)[1].

ولم تكن حجة المشركين نافعة لهم أو دافعة للعذاب عنهم فقد (أبطل الله عز وجل شبهة التقليد بثلاثة أمور: الأول:... أن ترك اليقين لمجرد التخرص والتخمين جهل، والتقليد مبني على تخرص وتخمين، لأن أساسه تعظيمهم لآبائهم واستبعادهم أن يكونوا على ضلال. الثاني: الإخبار بأن الأمم الغابرة كانت تقول مثل هذا، أي: ومشركو العرب يعترفون بنبوة المتقدمين أو بعضهم، وضلال مكذبيهم، فإذا تأملوا هذا عرفوا سقوط شبهة التقليد. الثالث قوله: ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾ ، [الزخرف: 24] يريد - والله أعلم -: لا تحصروا نظركم في حسن الظن بآبائكم، بل مع ذلك انظروا فيما وجدتموهم عليه وفيما جئتكم به، ووازنوا بينهما..)[2].

(1) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 207).

(2) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 533- 534).

ومن المعلوم أن الشيخ المعلّمي لا يدعو إلى الانفلات والقول على الله بغير علم فهو يقرر أن ((من الرد إلى الله ورسوله سؤال الجاهل للعالم))[1]، ولكن المقصود بالذم في كلام الشيخ هو التقليد المذموم المبني على التعصب والإعراض عن الحجج[2].

التقليد المذموم حال أكثر الخلق:

التقليد المذموم هو من أعظم آفات التفكير وأكثرها شيوعا في الناس، وحتى أولئك الذين يدّعون التحرر من التبعية الفكرية أكثرهم خاضع لسلطة تقليد من يعظّمونه، وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية حين يرد على بعض الطوائف التي تتظاهر بالعقليات يستدل بأقوال مشايخهم ورؤوسهم، لأنه كان مدركًا لحقيقة الحال، وأنّ القومَ ليسوا إلا متحررين من سلطة الشرع، ويرسفون في أغلال التقليد المذموم، قال ابن تيمية شارحاً مسلكه الجدلي: (لهذا أذكر من كلام رؤوس الطوائف من العقليات ما يبين ذلك، لا لأنا محتاجون في معرفتنا إلى ذلك، لكن ليعلم أن أئمة الطوائف معترفون بفساد هذه القضايا، التي يدعي إخوانهم أنها قطعية، مع مخالفتها للشريعة، ولأن النفوس إذا علمت أن ذلك القول قاله من هو من أئمة المخالفين، استأنست بذلك واطمأنت به، ولأن ذلك يبين أن تلك المسألة فيها نزاع بين تلك الطائفة، فتنحل عقد الإصرار والتصميم على التقليد، فإن عامة الطوائف وإن ادعوا العقليات؛ فجمهورهم مقلدون لرؤوسهم، فإذا رأوا الرؤوس قد تنازعوا واعترفوا بالحق، انحلت عقدة الإصرار على التقليد)[3]. وحين أراد نقل كلام رؤوس المتكلمين قال:((كثير من

(1) عمارة القبور في الإسلام للمعلمي (5: 3).

(2) لتبين موقف الشيخ من التقليد باعتباره مفهوما أصوليا يُنظر رسالة الاجتهاد والتقليد، ورسالة التعصب المذهبي، ومجموع رسائل أصول الفقه.

(3) درء التعارض لابن تيمية (1: 377).

الناس قد صار منتسبًا إلى بعض طوائف المتكلمين، ومحسنًا للظن بهم دون غيرهم، ومتوهمًا أنهم حققوا في هذا الباب ما لم يحققه غيرهم، فلو أُتي بكل آية ما تبعها حتى يُؤتى بشيء من كلامهم))[1].

وهذه الحقيقة البشرية في بيان سلطة التقليد واستبدادها على عامة العقول وسيطرتها على غالب الذهنيات هي في غاية الظهور للشيخ المعلّمي، فقد قررها في كتبه كثيراً، وهي آفة عظيمة اتسعت رقعتها -في نظره- لتشمل فئات فكرية متباينة، فالتقليد عند الشيخ مدّ رواقَه ودقّ أطنابه وبسط نفوذه ليشمل طلاب العلم والعلماء والمتكلمين وأتباع الفلاسفة والمتأثرين بالفكر الإلحادي!

فأما طالب العلم فهو كثيراً ما يرضخ لهذه السلطة بشعور وبلا شعور، قال الشيخ: ((طالب العلم لا بُدَّ أن يقلد شيخه والكتاب الذي يقرؤه؛ لأنه لا يكاد يستطيع أن يبقى على ما يقتضيه خُلُقُ الذهن حتى تقهره الحجة، فإنها تَعْتَوِرُه شبهاتٌ وأهواءٌ تخيَّل إليه أنه قد عقل الحجَّة واتَّضحت له في كثير من المسائل، ثم ينشأ على الهوى لتلك المسائل وعلى الهوى لشيخه ومذهبه وعلى تَوَهُّم أن الحقَّ محصورٌ فيه))[2].

أما العلماء فحين حين تأخر الزمان استفحل التقليد ليشمل عامة المنتسبين للمشيخة، قال الشيخ: ((والحال في العصور المتأخرة على خلاف ذلك، فإن الذين يشتهرون فيها بأنهم علماء عامَّتُهم مقلِّدون لمذاهبهم))[3].

(1) مجموع الفتاوى (5: 100).
(2) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 77- 78).
(3) رفع الاشتباه للمعلمي (2:196).

وأما المتكلمون فـ((مَنْ تأمَّل أصولهم التي يبنون عليها العقليات عَلِم أنها بغاية الضعف، وإنما يرجعون إلى تقليد أرسطو وابن سينا مع أنه قد جاء عن أرسطو أنه قال: لا سبيل في الإلهيات إلى اليقين، وإنما الغاية القصوى فيها الأخذ بالأليق))[1].

وأما أتباع الفلاسفة فإنهم يقلدون مقالات متبوعيهم التي قالوها على الظن والخرص، فالفلاسفة لم يزعموا لأنفسهم القطع واليقين وإنما البلاء فيمن قلدهم في ذلك القول على جهل، قال الشيخ: ((أن الفلاسفة أنفسهم كثيرًا ما يذكرون الشيء على الحَدْس والتخرُّص، لا على أنه يقيني عندهم، ويوردون عليه شواهد حَدْسية، فيجيء من بعدهم فيرى أن تلك حقائقُ قطعية لا تقبل الشك))[2].

وأما المتأثرون بالفكر الإلحادي وهم أولئك المعترضون على بعض الأحكام الشرعية بعقولهم، والمتظاهرون بأنهم أبعد الناس عن التقليد، فيقول الشيخ عنهم: ((كثير منهم يدع تقليد أسلافه ويقلِّد بعض الملحدين، فهل خرج هذا من الرقِّ إلى الحرّية؟ كلَّا، بل خرج من رقٍّ إلى رقٍّ، حرُّ الفكر هو الذي يُطلِق فكره حيث يستطيع الانطلاق ويكفُّه حيث يحبّ الانكفاف. حرُّ الفكر هو الذي يحرِصُ على الحق أينما كان، فإذا ظهر أن الحق هو ما كان عليه أسلافه لزِمَه، ولم يُبالِ بأن يقال: جامد مقلِّد. حرُّ الفكر هو الذي يحرِص على الثبات على المبدأ الذي كان عليه أسلافه، حتى تقهره الحجة الواضحة))[3].

البواعث على التقليد المذموم:

(1) رفع الاشتباه للمعلمي (3: 380).
(2) يسر العقيدة الإسلامية للمعلمي (5: 32).
(3) مجموع رسائل الفقه للمعلمي (18: 538).

هناك أسباب وبواعث تحمل الإنسان على تعطيل ملكاته الفكرية والركون إلى عقل غيره بغير برهان، وقد ذكر الشيخ المعلمي عدداً من هذه البواعث في أثناء مناقشاته العلمية:

1-**العِصْمَة المقنَّعة:**

غالب المسلمين من عامتهم وخاصتهم لا يقولون بعصمة عالم من العلماء، وإنما جملتهم يجوزون وقوع متبوعهم في الخطأ والزلل والغفلة، ويتبرؤون من القول بعصمته، ويقررون بوضوح أن كل أحد غير النبي -صلى الله عليه وسلم- يؤخذ من قوله ويردّ، هذا من جهة التنظير العلمي، لكن من الناحية العملية لا تجد القول بالعصمة بعيداً عن تصرفات بعض من أهل التقليد والتعصب، قال الشيخ المعلمي في بيان حال المنكرين للعصمة نظرياً والمثبتين لها عملياً: (إنك تجد كثيرًا من المقلدين للشافعيّ مثلًا لا يجوّزون الخطأ عليه. فإن قيل: إنهم لا يصرّحون باعتقاد العصمة. قلت: نعم، ولكن ألا تراهم كلما عُرِضَ عليهم قولٌ من أقوال الشافعي اعتقدوا أنه الحق، ولا يتردَّدون فيه، ولو خالف القرآن أو خالف الأحاديث الصحيحة أو خالف أكابر الصحابة أو خالف جمهور الأمة؟ فلولا أنهم يعتقدون له العصمة لكانوا إذا بُيِّنَتْ لهم الحجة على خلافه خضعوا لها. ولقد كثر اعتقاد العصمة في كثير من أفراد الأمة فضلًا عن الطوائف كالأشعرية والمعتزلة ونحوها، ومع هذا فلا نقول فيمن لم يصرّح باعتقاد العصمة إنه يعتقدها، وإنما وقعوا فيما وقعوا فيه بالتعصب ومحبة النفس، فإنَّ أحدهم يحب نفسه حتى لا تطاوعه إلى الاعتراف بأنَّ آباءه أو مشايخه أو أهل مذهبه أخطؤوا، فلذلك تجده لا يميل إلى الاعتراف بأن إمامه أخطأ، وإن قامت الحجة عليه، بل يذهب يحرِّف الحجج ويؤوِّلها. وليس هذا بالتقليد الذي أجازه العلماء في الفروع وأنكره بعضهم، وإنما التقليد المجوَّز أن تأخذ بقول مجتهد لا تعلم حجَّته، ولكن قد قام عندك دليل يفيد الظن بأنَّ قوله صواب، فإذا أُخْبِرْتَ بدليل أقوى من الدليل الأول

يدلُّ على أنَّ ذلك المجتهد أخطأ، وأنَّ الصواب قول مجتهد آخر، لزمك أن ترجع إلى قول الآخر)[1].

وقال الشيخ: (الحقُّ أنَّ التقليد لا يفيد إلا الظنَّ غير الجازم، وما يظهر من جزم مَن نراه مقلِّدًا لا يخلو عن ثلاثة أحوالٍ: الأولى: ألَّا يكون مقلِّدًا في الواقع، بل قد يعقل برهانًا قطعيًّا، وهذا حال عوامّ المسلمين غالبًا في إيمانهم بالله ورسوله. الثانية: أن يكون قد قام عنده ما توهَّمه برهاناً قاطعاً؛ إما على العقيدة نفسها، وإما على عصمة إمامه..)[2].

وقال الشيخ: (لما بحثت عن أسباب تقليد الناس لمن يظنون به الخير والصلاح، وجدت أنه قد سرى إلى أذهانهم اعتقاد العصمة لكثير من أولئك، حتى لقد يغلو بعضهم فيثبت لبعض الأولياء كمالات لا يثبتها للأنبياء، وينزهه عن أشياء لا ينزه عنها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)[3].

2- الإيمان الداخلي العميق بأن المتبوع لديه جوابات عن جميع الإيرادات والإشكالات على كل المقالات، فكل حجة تعترض ذهن المقلد يبادر إلى تفنيدها بهذا الجواب المريح: (لعلّ لإمامي جواباً عن هذا الدليل!)، ويمضي في سبيله، قال الشيخ المعلمي: ((المقصود أن قولك: "لعل لإمامي جوابا عن هذا الدليل" لا ينجيك، ولكنه أهون من أن تعمد إلى الأدلة المخالفة لمذهبك فتحرفها وتؤولها وتبدلها، والعياذ بالله))[4].

(1) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 220).
(2) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 204- 205).
(3) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 241).
(4) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 221).

3- ما ينقل من الخوارق وادعاءات علم الغيب عن بعض أقطاب التصوف، قال الشيخ: (واعلم أن الباعث على تقليد الصوفية والغُلوِّ فيهم أمران: الأول: ما ينقل عن أحدهم من الخوارق. الثاني: اعتقاد أنهم يطَّلعون على الغيب).

4- الاغترار بكثرة الأتباع وجلالة الذكر في النفوس فالباعث على تقليد كثير من المعظَّمين بغير حجة، هو الاغترار بكثرة أتباعهم، والاستناد إلى مكانتهم وجلالة عقولهم في النفوس، قال الشيخ عن مَن أراد القراءة في مقالات المتكلمين: ((ليحذر من تقليد المتكلمين والمتفلسفين، وليضع كل أصل يؤصلونه على أنه دعوى لا يقبلها بمجرد الاغترار بكثرة المدعين وجلالتهم في صدور الناس، وما اشتهروا به من علم ودقة نظر، وما يكررونه من زعم: أن بدائه العقول دالة عليها، وأنها قامت عليها البراهين القطعية، وأنه لا يخالفها إلا بليد أو معاند، أو غير ذلك))[1].

المبحث الثاني:
التعصب والهوى

المطلب الأول: التعصب.

من آفات التفكير التعصب، وهو حجاب غليظ يحول بين المرء وبين رؤيته وجه الصواب فيما يعرض له من مسائل علمية وعملية، وهو من أشد الآفات فتكاً بإمكانيات التفكير وأدوات النظر وملكات البحث، فإذا دخل التعصب على قلب إنسان فإنه يغلَط في تفكيره ونظره لا محالة، وذلك لأنه يحمله على اعتبار الأوهام واطراح الحقائق، لذلك يحث العلماء على (تجنب الأهواء والبدع والإخلاص وعدم العصبية)[2]، والمتعصب لغير الحق لا يحمد على ما يفعله بحال، قال ابن تيمية: ((أما

(1) يسر العقيدة الإسلامية للمعلمي (5: 22).
(2) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 317).

التعصب لأمر من الأمور بلا هدى من الله فهو من عمل الجاهلية))[1]، وقد يستفحل التعصب فيحمل صاحبه على تزوير الحقائق وافتراء الأقوال واحتراف الكذب، قال ابن تيمية: ((لا نعلم طائفة أعظم تعصباً في الباطل من الرافضة حتى أنهم دون سائر الطوائف عرف منهم شهادة الزور لموافقهم على مخالفهم وليس في التعصب أعظم من الكذب))[2]، فالكذب أحط دركات التعصب، وقد لا يصل المتعصب إلى هذا الحضيض وإلى دركة الكذب والافتراء الصريح المقصود، وإنما يحجزه إيمانه عن هذا المسلك، لكنه يقع في مراتب مقاربة من التزويق والتلفيق والحيف على الحقيقة العلمية والتجافي عن التفكير المنهجي الصحيح بشعور منه أو بغير شعور!

تصوير المعلمي لآثار التعصب على التفكير:

الآثار البالغة الناجمة عن التعصب كانت حاضرة في وجدان المعلمي، فكثيراً ما يفسر بها بعض المقالات والمسلكيات، ويحذر الشيخ من غلبة التعصب على العقل فيورثه ضبابية في الرؤية، وسأذكر بعض آثار آفة التعصب على التفكير كما يقررها الشيخ المعلمي:

1-الباحث المحامي في المحكمة:

هناك فرق ظاهر بين عمل الباحث عن الحق المتجرد في طلب الهدى، وبين عمل المحامي في أروقة المحكمة الذي لا يعنيه إلا مصلحة موكِّله، فالأول يبحث عن الحق حيثما كان، سواءً كان حقاً موافقاً لهواه أم معارضاً، أما الثاني فيبحث عن أمر محدد

(1) مجموع الفتاوى لابن تيمية (11: 28).

(2) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (4: 69)، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى (1406 هـ).

سواءً كان حقاً أو باطلاً، فمن المصطلحات اللطيفة التي نحتها الشيخ المعلمي حين وصف عمل هذا الثاني بأنه عمل (المحامي) في المحاكم!

والمعلمي ينتقد نقداً لاذعاً مسلك هذا الباحث المتعصب الذي يلبس لأُمة المحامي الألد في المحكمة، ويوصي بأن لا نجعل هؤلاء المحامين قضاةً، وإنما نسمع منهم كما يسمع القاضي من المحامي. قال الشيخ: ((اعلم أن أكثر العلماء المنتسبين إلى المذاهب لم ينصبوا أنفسهم منصب القضاة، **وإنما نصبوا أنفسهم منصب المحامين،** كل عن المذهب المنتسب إليه، فعلى طالب الحق أن ينزلهم منازلهم فلا يعدهم قضاة يقبل قولهم في تأييد مذهب المنتسبين إليه وتخطئة غيره، بل عليه أن يعرف أنهم محامون عن مذاهبهم، فلا يسمع من أحد منهم إلا كما يسمع القاضي من المحامي))[1].

وقال الشيخ عن الجامد على التمذهب المتعصب لجميع فروعه بأنه ((أعلن عن نفسه بأنه "محامي"، وقد كان عمل المحامي الألدِّ قاصرًا على ما ذكره إياس بن معاوية، عن صالح السدوسي أنه يقول لموكله: "اجحدْ ما عليك، وادَّعِ ما ليس لك، واستشهد الغُيَّب"، فزاد بعد ذلك باستشهاد شهود الزور ومحاولة جرح شهود المخالف العدول؛ وقع هذا وأكثر منه من هؤلاء المحامين عن المذاهب. نعم، إنهم متفاوتون ولكن أحسَبُهم إلى أصحاب مذهبه أَلَدُّهم وأَلَجُّهم؛ يُطرونه بقوة العارضة، والصلابة في المذهب، وشدّة الوطأة على المخالفين، مع أنهم يرمون من خالفهم – وإن كان مستقلاً أو ملتزمًا غير متقيِّد – بالتعصب واتباع الهوى والتعامي عن الحق وأشباه

(1) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 216).

ذلك))[1]. وقال الشيخ عن أحدهم بأن شأنه ((شأنَ المحامين في المحاكم، معيارُ الحق عند أحدهم مصلحةُ موكِّله!))[2].

ومسلك "الباحث المحامي" ليس على مرتبة واحدة، وإنما هؤلاء المحامون مراتب متفاوتة ودرجات متباينة، وذلك بحسب استحكام جذور التعصب في قلوبهم، قال المعلِّمي شارحاً مراتب الباحثين المحامين:

((من الناس مَن تغلب عليه العصبيَّة للرأي الذي نشأ عليه وقَبِلَه من آبائه أو مشايخه، ويستغني بمحبته لذلك الرأي عن أن يتطلب له حجة، ويحول ذلك بينه وبين أن يصغي إلى الأدلة التي يتمسك بها مخالفه أو يتدبَّرها، فإن تعدى هذه المنزلة أخذ يتطلب الأدلة لرأيه، فيجمع كل ما يظن فيه دلالة بدون تصحيح ولا تنقيح ولا نظر في الأدلة المعارضة له. فإن جاوز هذه الدرجة تصفَّح أدلة مخالفيه وانتقى منها ما يسهل عليه تأويله، وأعرض عن الباقي. فإن ترقى عن هذه المرتبة جَهَدَ نفسه في الكلام على ما يجده لمخالفه من الأدلة، وإن اضطر إلى التعسف والتحريف ومخالفة القواعد القطعية))[3].

ومسلك "الباحث المحامي" الذي انتقده المعلمي، وصَفه شيخ الإسلام ابن تيمية وبين أنه من آثار التعصب المذموم، وأنه ربما دخل على بعض أهل الفضل والديانة، قال الشيخ عن أحد العلماء الأجلاء: ((رآه أهل العلم لا يستوفي الآثار التي لمخالفيه كما يستوفي الآثار التي له وأنه يحتج بآثار لو احتج بها مخالفوه لأظهر ضعفها وقدح فيها وإنما أوقعه في هذا –مع علمه ودينه– ما أوقع أمثاله ممن يريد أن يجعل آثار النبي

(1) مجموع رسائل أصول الفقه للمعلمي (18: 317- 318).
(2) تعزيز الطليعة للمعلمي (9: 143).
(3) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 314).

صلى الله عليه وسلم موافقة لقول واحد من العلماء دون آخر، فمن سلك هذه السبيل دحضت حججه وظهر عليه نوع من التعصب بغير الحق))[1].

2- **الطعن على المخالف بغير دليل**: لأنه يتوهم بعض المطاعن توهما وذلك من شدة حنقه وبالغ تعصبه على المخالف، قال الشيخ المعلمي: ((وقد عُرف تعصب الدولابي على نعيم، فلا يُقبل قوله فيه بلا حجة))[2].

3- **التمحل والتكلف في رد الأدلة الصحيحة أو تأويلها**: فالمتعصب لا يرى الصواب إلا في قوله أو في قول متبوعه، وليستقيم له هذا التقرير فإنه يصطنع التمحلات والتكلفات ويجيب بها عن الأدلة التي تعترض قناعاته. قال الشيخ: (فكأيِّنْ من دليلٍ من كتاب الله تعالى أو من سنة رسوله صلَّى الله عليه وآله وسلم أجلب عليه مقلِّد بخيله ورَجله، وعدا عليه بنَابِه وظُفْرِه، فغادرَه يتشحَّطُ في الدم.. وقد كنتَ في غِنًى عن هذا، فإنك تقول: إنك مقيَّدٌ بمذهبك، لا يلزمك عنه ولو ثبتَ الدليل، ولا يلزمُك إقامةُ دليلٍ على صحة مذهبك ولا دَفْعُ دليلٍ يخالفه، وتقول: إن فَهْمَ الأدلةِ كما ينبغي خاصٌّ بالمجتهد. فما حملَكَ بعد ذلك أن تسعَى لتكلُّف الاحتمالات البعيدة لمناصرة مذهبك، وتعدو على الأدلة المخالفة له فتؤوِّلها وتحوِّلها وتحرِّفها عن مواضعها؟ فهل هذا إلّا التناقض المحض والتعصب البحت؟ وهل هذا إلّا غِلٌّ في قلبك على كل ما خالف مذهبك وغلوٌّ في التعصب له؟)[3].

4- الأنفة عن الرجوع للحق عند تبيُّنه: وهذا أثقل ما على المتعصب، إذ يرى في العودة إلى الصواب جرحاً لكرامته وطعناً في شخصيته، قال الشيخ: ((العقل قد

(1) مجموع الفتاوى (24: 154).
(2) التنكيل للمعلمي (10: 827).
(3) تحقيق الكلام للمعلمي (4: 89- 90).

يغلط كما تقدم، فيظهر الغالطُ غلطَه ويحتج عليه، ويتعصّب له، فإذا دفعه غيره بحجة حمله التعصب على عدم الرجوع))[1].

5-عدم التمعن في حجة الخصم: فبالإعراض التام عن حجج المخالفين وعدم تمعن أدلتهم يرتاح ويسكن قلبه، قال الشيخ عن أحدهم (يحمله التعصب على عدم النظر في حجة خصمه)[2].

6- **الإضرار بالمتعصَّبِ له**: وهذا ظاهر جداً فإن المتعصِّبَ بمبالغته ومجاوزته الحدّ يوغر الصدور ويزرع الضغائن في قلوب الناس على من تعصَّب له، وهذا نقيض مراد المتعصِّب، فإنه أراد نصر متبوعه، فإذا به يخذله ويصطنع له الخصوم بتعصبه، قال الشيخ المعلمي -مستغرباً من هذه النتيجة المعاكسة-: ((من عجيب شأن التعصب أنه يبلغ بصاحبه من العمى أن يسعى جاهدًا في الإضرار بمن يتعصب له، متوهمًا أنه إنما يسعى في نفعه))[3].

وقال في موضع آخر في شرح هذا المعنى الدقيق: (ولا يخفى أن إساءة الأدب من جانب تستدعي الإساءة من الجانب الآخر، وهكذا:

إذا شُقَّ بردٌ شق بالبرد مثلُه دوالَيك حتَّى كلُّنا غير لابس)[4]

بواعث التعصب:

(1) يسر العقيدة الإسلامية للمعلمي (5: 41).

(2) يسر العقيدة الإسلامية للمعلمي (5: 42).

(3) التنكيل للمعلمي (10: 305).

(4) فوائد المجاميع للمعلمي (24: 420- 421)، والبيت لسحيم عبد بني الحسحاس. انظر البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: د. وداد القاضي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى (1408 هـ)

للتعصب بواعث وأسباب كثيرة، وقد تجتمع هذه الأسباب في إهاب رجل واحد، وقد تتفرق في نفوس الناس، وهي توجد كذلك بدرجات متفاوتة، فمن أسباب التعصب ما يلي:

1-**الانتصاب للدفاع عن جميع فروع مذهبٍ من المذاهب الفقهية:** وهذا سيحمل صاحبه إلى التعصب بلا ريب، وذلك لأن في كل مذهب أصولاً وفروعاً تحتمل الصواب والخطأ، قال الشيخ المعلمي: (وإذ كان كل مذهب من المذاهب غيرَ معصوم، فلا بُدَّ أن يكون وقع في كل منها فروع مخالفة للحق، يقع محاولُ الانتصار لها في الميل والحيف ولا بد)[1].

2- **كون الآباء والأشياخ درجوا على مسلك ومضوا على طريقة وساروا على منهج:** وهو يجلهم ويحبهم فيتعصب لهم، قال المعلمي: ((قد يكون وجد آباءه وأشياخه على الاعتزال ونشأ عليه، فصار يكره أن يُنْسَب الغلط إلى مذهبه ومذهب آبائه وأشياخه، وهذا هو التعصب، وهو أوْخَم هذه الأمور[2])).

وذلك لأن الحق بطبيعته راسخ عزيز لا يلتمس رضا أحد، ولا يتحرى ما كان عليه الآباء والأجداد، فمن جعل معياره في طلب الحق مطابقةَ مسلك الآباء والأشياخ فإنه سيقع في الانتصار لغير الحق، ويتجرع مرارة التعصب المذموم، وإذا يسر الله لهذا الاستجابة للحق فستكون بعد مكابدة ومجاهدة، قال المعلّمي في وصف العناء النفسي لهذا المتعصب: (يشقُّ عليه أن يتبيَّن له، فيشقُّ عليه أن يتبيَّن بطلانُ دينه، أو اعتقاده، أو مذهبه، أو رأيه الذي نشأ عليه، واعتزَّ به، ودعا إليه، وذَبَّ عنه، أو بطلانُ ما كان عليه آباؤه وأجداده وأشياخه، ولا سيّما عندما يلاحظ أنه إن

(1) مجموع رسائل أصول الفقه للمعلمي (18: 318).
(2) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 219).

تبيَّن له ذلك تبيَّن أن الذين يُطريهم ويعظِّمهم، ويُثني عليهم بأنهم أهل الحق والإيمان والهدى والعلم والتحقيق، هم على خلاف ذلك، وأن الذين يحقِرهم ويذمُّهم ويسخَر منهم وينسبُهم إلى الجهل والضلال والكفر هم المحِقُّون. وحسبك ما قصه الله عز وجل من قول المشركين، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: 32])[1].

وهو إذا انتصر على أهوائه وجاهد نفسه على اتباع الحق حيث كان فهو مأجور، فـ(على طالب الحق أن ينفي نفسه عن التعصب لفرقةٍ من هذه الفرق؛ بناء على أنه مسلك آبائه وأشياخه)[2].

والشيخ المعلمي يكرر هذا المعنى وينصح المتعصب بأن يعرض مقالة آبائه وأجداده على الحق، وينبهه إلى معنى دقيق وهو أن الآباء والأشياخ ربما كانوا في حكم الله معذورين، أما المتعصب لهم الذي يستبين له الحق ثم يعرض عنه لكون الآباء والأجداد يخالفونه فلا يُعذر، قال الشيخ: (دع الآباء والأشياخ، والتمِس الحق من معدنه، ثم إن شئت فاعرِضْ عليه مقالةَ آبائك وأشياخك، فما وافقه حمدتَ الله تعالى على ذلك، وما خالفه التمستَ لهم العذر، برجاء أن يكونوا لم يتعمَّدوا الباطل، ولم يقصِّروا تقصيرًا لا يسَعُه عفوُ الله تبارك وتعالى.. وإن أبيت إلا التعصبَ لآبائك وأشياخك، والجمودَ على أتباعهم، فقد قامت عليك الحجة)[3].

(1) التنكيل للمعلمي (11: 296).
(2) يسر العقيدة الإسلامية للمعلمي (5: 31).
(3) التنكيل للمعلمي (11: 533).

3–انتفاع المتعصب بتعظيم الناس لشيخه: فهو يتعصب لنفسه في صورة المعظِّم لشيخه، قال المعلمي: ((وقد يتعصب المريد لشيخه على شيخ آخر في عصره، فيحرص على أن ينسب لشيخه الخوارق والكرامات، وكثيراً ما يفعل المريدون ذلك بعد وفاة الشيخ ليكون لهم بذلك جاه وشهرة))[1].

4–تعصب الإنسان لمن يشاكله: وهذه المشاكلة والمشابهة قد تتخذ صوراً خفية دقيقة لا تخطر ببال كثيرٍ من الناس، وذلك كانتصار المرأة للمرأة، وانتصار العربي للعربي، وانتصار محب الشعر والأدب للمعرّي! وهذه المعاني –على صحتها– بالغة الدقة بعيدة الغور قلَّما تجد من يغوص ويشير إليها باعتبارها سبباً من أسباب التعصب، قال المعلمي: ((حتى إنك لترى المرأة في زماننا هذا إذا وقفتْ على بعض المسائل التي كان فيها خلاف بين أم المؤمنين عائشة وغيرها من الصحابة أخذت تُحامي عن قول عائشة، لا لشيء إلا لأن عائشة امرأة مثلها، فتتوهم أنها إذا زعمت أن عائشة أصابت وأن مَن خالفها من الرجال أخطأوا، كان في ذلك إثبات فضيلة لعائشة على أولئك الرجال، فتكون تلك فضيلةً للنساء على الرجال مطلقًا، فينالها حظٌّ من ذلك. وبهذا يلوح لك سرُّ تعصُّبِ العربي للعربي، والفارسي للفارسي، والتركي للتركي، وغير ذلك. حتى لقد يتعصب الأعمى في عصرنا هذا للمعرّي!))[2].

5–الشعور بأن في التزام الحق طعناً في المعتقدات السابقة: قد ينتحل الإنسان قولًا أو رأيًا يظنه صوابًا زمناً طويلاً ثم يظهر له بعد حين أنه كان مخطئاً، فيثقل عليه الرجوع، وذلك لكون الرجوع يقتضي الاعتراف الضمني بأنه كان على الباطل، قال الشيخ المعلّمي: ((أن يرى الإنسان أنَّ اعترافَه بالحق يستلزم اعترافَه بأنه كان على

(1) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 246).
(2) التنكيل للمعلمي (11: 294).

باطل. فالإنسان ينشأ على دين أو اعتقاد أو مذهب أو رأي يتلقَّاه من مربِّيه ومعلِّمه على أنه حقٌّ، فيكون عليه مدةً، ثم إذا تبين له أنه باطل شقَّ عليه أن يعترف بذلك))[1].

المطلب الثاني: الهوى.

من أعظم آفات التفكير المنهجي أن يكون المرء خاضعاً لأهوائه مذعناً لمقرراته المسبقة، فإن من تسيطر عليه الأهواء الجامحة لا يكاد ينتفع بالحجج والدلائل، والإشكال الأكبر أنه ربما أوهم نفسه وظنّ أنه متبع للحق البيّن وهو متبع للحق الذي يوافق أهواءه فحسب، أو هو متبع للباطل الذي يلبسه لبوس الحق ((وما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه ظانة أنها تفعله طاعة لله))[2]، فهذا الرجل الذي يحكمه الهوى قد ((توهم أن ما ظهر له بعقله هو الطريق القويم دون غيره، فمضى عليه، فحاد بسببه عن الطريق المستقيم، فهو ضال من حيث ظن أنه راكب للجادة، كالمار بالليل على الجادة وليس له دليل يهديه، يوشك أن يضل عنها، فيقع في متلفة، وإن كان بزعمه يتحرى قصدها))[3]، والهوى قد يتداخل مع التعصب، وكثيراً ما يعطف الهوى على التعصب، وربما يصح أن يقال إن التعصب نتيجةً له، وأكثر آفة من آفات التفكير فصَّلها الشيخُ المعلّمي وشرح آثارها وبيّن سبل الوقاية منها هي آفة الهوى، ولو جُرِّدَ كلامه في الهوى لكان رسالةً لطيفة.

سلطان الهوى على نفوس الخلق:

(1) التنكيل للمعلمي (11: 294).
(2) مجموع الفتاوى (28: 207).
(3) الاعتصام للشاطبي (1: 234).

النفوس البشرية ضعيفة لا تسلم من وجود أهواء تعتلج في جوفها، فليس الإشكال في وجود مادة الهوى في النفوس، فلم يكلف الله الناس أن يخلوا نفوسهم من أهوائها، فهذا تكليف بما لا يطاق، إنما المحظور هو في اتباع هذا الهوى والصدور عنه والإذعان له وتلبيسه لباس الحق، قال ابن تيمية: ((نفس الهوى –وهو الحب والبغض الذي في النفس– لا يلام عليه؛ فإن ذلك قد لا يملك، وإنما يلام على اتباعه))[1]، وقال المعلمي في تقرير هذا المعنى: (ما من إنسان إلا وله أهواء فيما ينافي العدالة، وإنما المحذور اتباع الهوى)[2]. ويقول: ((هذا ولم يكلِّف العالِمُ بأن لا يكون له هوى، فإنّ هذا خارج عن الوسع، وإنما الواجب على العالِم أن يفتِّش نفسه عن هواها حتى يعرفه، ثم يحترز منه، ويُمعِنَ النظرَ في الحق من حيث هو حق؛ فإن بان له أنه مخالف لهواه آثر الحق على هواه))[3].

وللهوى سلطة مستبدة على نفوس عامة الخلق، ولهذه الحقيقة العلمية شواهد وتجليات، منها سرعة انقياد النفس وقبولها للحقيقة البينة إذا وافقت هواها، ثم إعراضها عن الحقائق التي هي أوضح وأبين منها، وربما حاولت التصديق فإذا كان المصدَّق مخالفاً لهواها بادرت لتكذيبه، قال الشيخ المعلمي في تقرير هذا المعنى: ((للهوى سلطان عظيم على النفوس، فربما عُرِضَت الحقيقة البينة على النفس وهي غير مخالفة لهواها فتقبلها، ثم تُعرض عليها حقيقة مثل تلك في الوضوح أو أبين، ولكنها مخالفة لهواها فتردّها، وهل كذّب المشركون رسلهم إلا لمجيئهم بما يخالف

(1) الاستقامة لابن تيمية (2: 221– 222)، تحقيق د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولى (1403هـ).

(2) تعزيز الطليعة للمعلمي (9: 172).

(3) التنكيل للمعلمي (11: 320).

أهواءهم؟ وفي الحديث: "حُبُّك للشيء يُعْمي ويُصِمّ"))[1]. ويقول: ((قد يجتهد الإنسان في التصديق فإذا كُلِّف التصديق بما يخالف هواه لم يُصَدِّق))[2].

وليس الإشكال أمام كثير من الناس في كون براهين الحق غامضة أو متعذرة على الفهم وإنما الإشكال أن سلطان الهوى على النفوس شديدٌ ((ونحن نرى كثيرًا من الناس يتعقَّلون البراهين القطعيَّة، ومع ذلك لا يزالون مرتابين لغلبة الهوى والتقليد عليهم))[3].

بل إن الهوى ليبسط نفوذه على بعض النفوس حتى يجعلها ترى الشبهاتِ الضعيفة براهينَ قاطعة، وترى البراهينَ القاطعة شبهاتٍ واهية! قال المعلمي –مصوراً هذه الحال–: ((وإذا تمكَّن الهوى عميت البصيرة، فَتُعْرَضُ على صاحبه الحجة النيرة فيرى أنها شبهة فقط، حتى إنه كثيرًا ما يقول: إنها شبهة لا أقدر على حَلِّها، وتُعْرَضُ عليه الشبهة الضعيفة الموافقة لهواه فيرى أنها برهان قاطع))[4]، ويقول الشيخ في هذا المعنى: ((وقد تكون الشبهة واهية ولكن يقوِّيها الهوى، فيمنع صاحبها عن فحصها، كما يمنعه عن تدبر ما يقابلها))[5].

الهوى في نفوس الأكابر:

وربما عَظُمَ سلطان الهوى ومدّ ذراعيه الطويلتين حتى داخَلَ نفوس أهل الديانة والفضل من الذين لا يشك المرء في سعة علمهم وصدق أمانتهم، ولكنّ الهوى –على

(1) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 24).
(2) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 24– 25).
(3) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 204).
(4) رفع الاشتباه للمعلمي (3: 912).
(5) مجموع رسائل أصول الفقه للمعلمي (19: 101).

خفائه- عظيمُ النفوذ شديد السطوة سريع الخطوات، وإن كان إيمان هؤلاء وصدقهم يحجزهم عن كثير من دركات الهوى، ويعينهم على سرعة الفيئة، وقد يقوى رقيب الإيمان في نفوسهم ((حتى لا يكاد يبقى للهوى أثرٌ البتَّة، ولا يبقى في المعركة إلا الحجَّة والشبهة، وقد يَضْعُفُ الرقيب على تفاوتٍ، والتوفيق بيد الله))[1]. قال الشيخ المعلمي في بيان أثر الهوى حتى على بعض نفوس الأفاضل: ((من تتبع مناظرات أهل النحل المختلفة وتأويلاتهم تبين له ما ذكرناه، بل من تتبع مناظرات الفرق الإسلامية وما تحتجُّ به كلُّ فرقةٍ منها، وتردُّ ما يخالفها من الأدلَّة أو تتأوَّله عرف ما للهوى من عظمة السلطان، على أن كثيرًا من أولئك المتأوِّلين التأويلات التي لا يشكُّ البريء من الهوى في بطلانها هم ممن ثبتت معرفته وأمانته وأنه لا يتعمَّد الباطل، ولكن الهوى أعماه وأصمَّه فقاتل الحقَّ وهو يظنُّ أنه يقاتل عن الحقِّ، ولله درُّ البُرَيق الهذلي في قوله:

أَبِنْ لي ما ترى والمرء تأبى عزيمته ويغلبه هواه

فيعمى ما يرى فيه عليه ويحسب ما يراه لا يراه))[2].

ويقول: (وبالجملة فمسالك الهوى كثيرة، وفيها ما يَدِقُّ ويَغْمُضُ فيخفى على صاحبه، وكثيراً ما يتفق ذلك لأكابرَ لا يُرْتَاب في علمهم وفضلهم وورعهم)[3]. ويقول: (ومسالك الهوى قد تكون خفيَّة جداً فيتوهَّم الإنسان أنه لا سلطان للهوى عليه وأنه ممن يجاهد في الله طلباً للحق أَنَّى كان، مع أنه في الحقيقة على خلاف ذلك، ولولا هذا لما كنت تجد الناس لا يخرجون عن مذاهب آبائهم إلَّا نادراً)[4].

(1) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 72).

(2) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 24- 25)، وانظر عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت (1418هـ).

(3) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 72).

(4) المصدر نفسه (3: 912).

وهذا الهوى الخفي الذي ربما يقع في نفوس بعض الأكابر والأفاضل ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية وبيّن أنه حينما يقع في نفوس هؤلاء يكون فتنةً لطائفتين من الناس، قال ابن تيمية: ((الرجل العظيم في العلم والدين، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة... قد يحصل منه نوع من الاجتهاد مقروناً بالظن، ونوع من الهوى الخفي، فيحصل بسبب ذلك ما لا ينبغي اتباعه فيه، وإن كان من أولياء الله المتقين، ومثل هذا إذا وقع يصير فتنة لطائفتين: طائفة تعظمه فتريد تصويب ذلك الفعل واتباعه عليه، وطائفة تذمه فتجعل ذلك قادحاً في ولايته وتقواه، بل في بره وكونه من أهل الجنة، بل في إيمانه حتى تخرجه عن الإيمان، وكلا هذين الطرفين فاسد))[1].

بواعث الهوى:

بواعث الهوى جمّة، وأسبابه غزيرة، وربما يتشكل بأوضاع يراها الناظر متناقضة، فلو كان الهوى صورة واحدة معروفة لسهل على الإنسان معرفتها وتجافيها، وإنما لكثرة تشكلاته لا يعصم الإنسان من الهوى إلا شدة مراقبته لنوازعه ودوافعه، و((الضربُ الواحدُ من الهوى قد يوقع في أشياء يتراءى لنا أنها متضادة، فقد جاء أن موسى بن طريف الأسدي كان يرى رأي أهل الشام في الانحراف عن عَليّ رضي الله عنه، ويروي أحاديث منكرة في فضل عليّ، ويقول: "إني لأسخر بهم" يعني بالشيعة))[2].

وقد شرح الشيخ المعلمي كثيراً من بواعث الهوى في كتبه ورسائله على عادته في معالجة الحواجز النفسية بين يدي المناقشات العلمية إدراكاً منه أن الحقّ –في عامة الأحوال– ظاهر، وإنما الهوى الجامح طارئ وغلاب على عامة النفوس! قال الشيخ

(1) منهاج السنة لابن تيمية (4: 543).
(2) تعزيز الطليعة للمعلمي (9: 161).

شارحاً بعض بواعث الهوى: ((قد تَهْوَى القولَ لأن في مقابله مشقَّةً كعدم وجوب الجماعة، أو إخراجَ مالٍ كجواز الحيل لإسقاط الزكاة، أو تحصيلَ مال كجواز العينة، أو شهوةً كاستحلال النبيذ والملاهي، أو موافقةً لهوى مَنْ تُحِبُّ أو مخالفةً لهوى مَنْ تُبْغِضُ كان يُطَلِّقَ رجلٌ، ثم يَنْدَم فيستفتيك فتهْوَىْ عدمَ الوقوع إن كان صديقَكَ، والوقوعَ إن كان بغيضَك، وقد تَهْوَى القولَ لأنك ترى ذهابك إليه، وانتصارك له يُكْسِبُكَ جاهًا وقبولاً وشهرةً؛ كأن يكونَ موافقًا لهوى الأمراء والأغنياء والعامَّة، وهذا من أَضَرِّ الأهواء وأهدمها للدِّين، وقد تهواه لأنك ترى في ظهور صحَّته فخرًا لك، وفي ظهور بطلانه غضاضةً عليك، فتهْوَى القولَ الذي سبق أن قلتَ به وعرفهُ الناسُ، والقولَ الذي مضى عليه آباؤُك أو مشايخُك أو إمامك، أو أي رجل أو فريق تنتسب إليه؛ لأنك ترى أن ما يثبت لمن تنتسب إليه من مدحٍ بإصابة أو نقص بغلطٍ يَسْرِي إليك))[1].

ويتوغل الشيخ في تحليل النفوس بصورة عميقة نادرة المثال، فيرى أن الهوى ربما انبعث لأدنى مناسبة وأخفى سبب! يقول الشيخ: ((قد تهوَى القول لمناسبةٍ مَّا بينك وبين قائله، كأن تكون حنبليًّاً فتهْوَى قول مالك إن كنت مدنيًّا أو قول أبي حنيفة إن كنت فارسيًّا أو قول الشافعي إن كنت قرشيًّا، حتى لقد نجد المرأة في عصرنا تميل إلى قول يُرْوَى عن عائشة، وقد تهواه لأن في ظهور صحته نقصًا على من ينافسك من أقرانك ومعاصريك؛ لأنك تحبُّ ظهور نقصهم وظهورَ فَضْلِكَ عليهم. وكذلك تهواه إذا كان في ظهور صحته تخطئةٌ لمن كان ينافس أباك أو شيخك أو إمامك أو أيَّ رجل أو فريق تنتسب إليه؛ لأنك ترى أن في ظهور نقص ذاك رجحانًا لمن تنتسب إليه يسري إليك، حتى لقد يسمع الحنفي شعراً منسوباً إلى الإمام الشافعيَّ فيحرص

(1) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 69).

على أن يقدح في فصاحته، وقد تَهْوَى القولَ لأن فيه فضيلةً لك أو لمن تنتسب إليه أو توافقه في أمرٍ مَّا، أو لأن في مقابله نقصاً لمن يخالفك أو يخالف مَنْ تنتسب إليه، أو توافقه فتهوى القول بأنَّ الأعجميَّ كفءٌ للعربيَّة إن كُنْتَ عجميًّا، ومقابله إن كُنْتَ عربيًّا، وتهوَى صحةَ ما رُوِيَ في فضل العربِ دون ما رُوِيَ في فضل فارسٍ إن كنت عربيًّا، وعكسه إن كنت فارسيًّا)[1].

الهوى المنعكس:

وأغلب ما يكون الهوى في الأمور التي نشأ عليها المرء وسار عليها آباؤه وأجداده وأشياخه، فإن (الفطام عن المألوف شديد، والنفوس عن الغريب نافرة)[2]، قال المعلمي في ذكر حالة اشتداد الهوى: (يشتدُّ الهوى جدًّا في الأمور التي نشأ عليها الرجل وأَلِفَهَا وافتخر بها ومضى عليها آباؤه وأجداده وأحبَّاؤه وشيوخه ومَنْ يقتدي بهم، ويرجو النجاة بحبِّهم وشفاعتهم، إذا قيل له في كثير من تلك الأمور إنها بدع، وإن منها ما هو كفر أو شرك، ذلك أنه يرى أن من لازم صحة ذلك أن يظهر أنه كان مبتدعاً ضالاً أو كافراً مشركاً، وأنَّ كثيراً من آبائه وأجداده وشيوخه وفقهائه وأقطابه وأوتاده كانوا مبتدعين ضالّين أو كفَّاراً مشركين وأنهم مخلَّدون في النار، وأنه إذا تدبَّر الحجج فتبيَّن له بطلانُ ما كان عليه هو وأسلافه فرجع إلى الحق كان رجوعُه بدعوة أناسٍ لم يزل يمقُتُهُم ويُسَفِّهُهُمْ)[3].

هذا هو الأصل الغالب على عادة الناس، ولكن ربما انعكس الهوى واتخذ صورةً مقلوبة، وأفضى بالمرء إلى أن يكون مولعا بمخالفة ما درج عليها الآباء والأجداد!

(1) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 70).
(2) المستصفى للغزالي (1: 9).
(3) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 71).

وهذه من أعاجيب الهوى الخفية وأحابيل النفوس الدقيقة، قال المعلّمي في شرح هذا الانعكاس الجذري: ((قد ينعكس الهوى فَيَهْوَى الإنسانُ أن ينقض قولَهُ السابقَ وأن يخالفَ آباءه وأجدادَه وشيوخَه وأئمّتَه وسائرَ ما تقدَّم، يَهْوَى ذلك حرصاً على أن يقال: حرُّ الفكر بريءٌ من التعصُّب، وطمعاً أن يُعَدَّ مجدّداً يُؤْخَذُ عنه، وإمامًا يُقْتَدَى به، وعلى الأقلِّ يرى أنه إذا خالف الأكابر فقد صار قِرناً لهم. وقد كان أصاغرُ الشعراءِ يَتَعَرَّضون لِهَجْوِ أكابرهم كجرير والفرزدق وبَشَّار، كل ذلك ليرتفعوا بذلك فيقال: إن فلاناً ممن هاجى جريراً، ولهذا كان الأكابر يترفَّعُون عن إجابة هؤلاء المتعرِّضين.))[1].

مراقبة الهوى في كل حال:

ربما سرى الهوى في النفوس على حين غِرّة، فيبحث الإنسان في مسألة وهو يتوهم أنه خال من الهوى، متجرد في طلب الحق، وهو غارق في لجةِ هواه، وربما يكون خالياً من الهوى في أول النظر ثم يطرأ عليه بعد ذلك، لذلك يدعو الشيخ المعلمي الباحث إلى صدق التجرد ومراقبة نوازع النفس في كل حال، فيفتش في هواها قبل الشروع في البحث، ويفتش في هواها بعد الشروع فيه، فربما تسلل إليه الهوى في منتصف البحث! وهذا تدقيق بعيد الغَور، فكثيراً ما يدخل المرء في بحث مسألة وهو خالي الذهن من الميل إلى أحد طرفَيها، ثم يتسلل الهوى لقلبه لواذاً في وسط البحث وفي معمعة النظر، فيحمله على الحيف في الترجيح، يقول الشيخ المعلمي: ((على الناظر في مسألة من المسائل أن يفتِّش نفسه قبل البحث فيها، ثم في أثنائه، مثلاً إذا أردت النظر في حكم الماء القليل تقع فيه نجاسة لا تُغَيِّرُه ففتِّش نفسك قبل البحث فإنها لا تخلو عن حالين، إما أن تودَّ وتشتهيَ واحداً معيّناً مِن الطرفين: التنجُّس وعدمه، وإما

(1) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 71- 72).

أن لا يكون لها ميلٌ إلى ذا ولا ذاك، وإنما تودُّ معرفة الراجح منهما شرعاً، فإن وجدتَها على الحال الثانية فهي حينئذ بريئة من الهوى، وإلَّا كأنْ تجدها تهوَى عدم التنجُّس، ففتِّش عن سبب ذلك الميل، وقَوِّمْ نفسك إن استطعت))[1]، ويقول موصيا الباحث: ((لا تنس مراقبة نفسك أثناء البحث فإنه قد يَعْرِضُ لها هوىً لم يكن قبلُ.. فإذا لم يحصل لك من البحث إلا الرجحان النفسيُّ فلا تثق به، وإذا ظهر لك دليلٌ يوافق هواك فأمعن في تأمُّلِه والتفكُّر فيما يخدش فيه أو يعارضه كما تصنع في دليل خصمك، واستعن بمراجعة مَن يخالفك)) [2].

مكاشفة:

الشيخ مع كثرة كلامه عن الهوى وتحذيره من سلطانه، لا يزكي نفسه من تبعاته، ولا يمنحها صك البراءة من الهوى، وإنما يقول الشيخ بكل تجرد: ((ولست أدَّعي براءتي من الهوى، ولا تمكّني من التغلُّب عليه كما يجب))[3]، ويقول: ((وإنني ما أبرئ نفسي عن الهوى، ولا آمَنُ أن يكون لي هوى أنا غافل عنه أو عارف به غير محترس من الاسترسال معه، أو محترس مقصّر، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم))[4].

وفي نصٍّ من عيون نصوص المعلّمي يشرح فيه نفوذَ سلطان الهوى وقوة استحكامه على النفوس البشرية، ويضرب المثال بتجربة ذاتية صادقة متجردة، يقول: ((وبالجملة، فمسالك الهوى أكثر من أن تُحْصى. وقد جَرّبتُ نفسي أنني ربما أنظر في

(1) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 73).
(2) رفع الاشتباه للمعلمي (2: 74).
(3) شكر الترحيب للمعلمي (9: 205).
(4) الوصايا للمعلمي (22: 255).

القضية زاعماً أنه لا هوى لي، فيلوح لي فيها معنى، فأقرِّره تقريراً يُعجبني. ثم يلوح لي ما يخْدِش في ذاك المعنى، فأجدني أتبرَّم بذلك الخادش، وتُنازعني نفسي إلى تكلُّف الجواب عنه، وغضِّ النظر عن مناقشة ذاك الجواب، وإنما هذا لأني لما قررتُ ذاك المعنى أولاً تقريراً أعجبني صرتُ أهوَى صحته، هذا مع أنه لم يعلم بذلك أحد من الناس، فكيف إذا كنتُ قد أذعتُه في الناس، ثم لاح لي الخدش؟ فكيف لو لم يَلُح لي الخدش، ولكنّ رجلاً آخر اعترض عليّ به؟ فكيف لو كان المعترضُ ممن أكرهه؟!))[1].

الخاتمة

أهم النتائج:

وفي ختام هذا البحث أقيِّدُ جملةً من النتائج والتوصيات:

المعرفة الإنسانية لن ترتقي وتتقدم بمعرفة ركام من المعلومات غير المترابطة، بل تتقدم المعارف الإنسانية بالوقوف على الأنظمة الكلية للمعارف، ولا يمكن أن يكتمل بناء التفكير الناقد لدى الناظر دون الإحاطة بمناهج التفكير ومباحثها وآفاتها، فهي تمنحه القدرة على الاختبار والمحاكمة والنقد الجذري، وذلك من خلال مقارنة المخرجات بمقدماتها، ورد الفروع إلى أصولها، ثم محاكمتها إليها.

– يبالغ بعض الناس في الحط من قدر المخالفين ويحملهم ذلك إلى ترك حكاية أقوالهم الباطلة ، وللمعلمي عناية بحكاية أقوال المخالفين وشبههم كما هيَ، ثم مناقشتها وتفنيدها وإطلاق الأحكام العلمية عليها بكلّ صدق ودقّة وتجرد.

(1) التنكيل للمعلمي (11: 319).

– المبالغة في التشنيع على المخالفين واستعمال أقذع المفردات وأحطّ وأبشع عبارات النكاية كثيراً ما يضر أكثر مما ينفع، فقلّما ينتفع المخالف بمن يسبه ويشتمه، وإنما يحمله هذا المسلك غالباً إلى العناد والتصلب، وكما يقرر الشيخ المعلمي أن في النكاية العلمية كفاية إن كانت النكاية مقصودة لذاتها.

– من أعظم ما يجب على الباحث محاذرته الوقوع في آفات التفكير التي تحول بينه وبين معرفة الحق، وذلك كالجهل، والتقليد، والهوى، والتعصب، وقد شرح الشيخ المعلمي كثيراً من بواعث الهوى وآثاره في كتبه ورسائله إدراكاً منه أن الحقّ –في عامة الأحوال– ظاهر، وإنما العوارض النفسية غالبة على أكثر الخلق.

– ربما سرى الهوى في النفوس على حين غِرّة، فيبحث الإنسان في مسألة وهو يتوهم أنه خال من الهوى، متجرد في طلب الحق، وهو غارق في لجةِ هواه، وربما يكون خالياً من الهوى في أول النظر ثم يطرأ عليه بعد ذلك.

التوصيات:

- ضرورة العناية بدراسة المناهج عموماً وضوابط التفكير وآفاته خصوصاً.
- أوصي الباحثين بضرورة توخي صدق التجرد ومراقبة نوازع النفس قبل الشروع في بحوثهم.